فصل من رواية

حنا مينة

في الصفحات التالية فصلٌ من رواية جديدةٍ لحنّا مينة، تصدر قريباً عن دار الآداب، وعنوانها: الفم الكرزي. وهي رواية عن الأرمن، ولكنها ـ في المآل الأخير ـ روايةٌ عن العرب السوريين واللبنانيين، في الكفاح المشترك الذي خاضوه، سرّاً وعلناً، من أجل إجلاء القوات الفرنسية والإنكليزية عن سورية ولبنان، في العام ١٩٤٦.

وقد رأينا أن نُقَدِّم هذا الفصلَ بمقاطع من «مقدّمة» كتبها الحقوقيُّ السوريُّ الأرمني واكيم استور، وبـ «ايضاح» من الروائي السوري العربي الكبير.

صفحات من نضال الأرمن العرب

مقدمة

بقلم: واكيم استور

هذه رواية عن الأرمن، وعن أرمنِ بلدةٍ محددةٍ بالذات هي بلدة «كسب»، منتجع الاصطياف الواقع إلى الشمال من اللاذقية، على خط الحَدود مع تركيا. من المحتمل أن يكون البعض قد سمع بها، ومن المحتمل أن يكون البعضُ الآخر لم يسمع بها، خصوصاً أولئك الذين لا يصطافون فيها أو الذين لا يعرفون الكثير عن سورية. وحتى الذين يعرفونها أو سمعوا بها، أو ألفوها صيفاً بعد صيف، فقد أصبحت بالنسبة إليهم «مصيف» كسب فقط. ولئن كانوا في قرارتهم يعرفون أنّ كل سكانها من الأرمن، فإنّ ذلك قد صار بالنسبة إليهم من «تحصيل الحاصل» كما يقال، ولا يحتاج أن يُذكر كلما ذُكِرتْ «كسب»؛ فالأرمن هنا جزءٌ من شعب المنطقة، وهم أيضاً من «تحصيل الحاصل» ذاك، ولا يحتاج الى ذكر خصوصي أو تنويه مستقل. وهذا وجه إيجابي للمسألة باعتبار أنك لا تحتاج، كلما ذُكرت مدينةٌ من مدننا، أن تقول إنّ سكانها من السوريين «العريقين» الذين تمتد جذورُهُم عميقاً في أرض المنطقة.

أقول «عريقين» بقصد، لأنّ الذي لا يزال غير إيجابي هو أن معرفتنا بالأرمن، الذين يسكنون بيننا وإلى جوارنا ونتعامل معهم صباحَ مساءَ، لا تزال سطحيةً وناقصةً، على مستوى عموم الشعب العادي، الذين إن سألتهم أجابوك بأنّ الأرمن شعبٌ هاجر إلى البلاد إبان الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٥، وهو شعبٌ نشيط وجاد ومستقيم في معاملاته. وقد يضيف هؤلاء الناس العاديون أنهم يحبون الأرمن ويحترمونهم ويفضلون التعاملَ معهم على غيرهم، خصوصاً في مجال الحرف اليدوية والصناعية. لكنك تشعر وكأنّ أولئك الناس العاديين يتحدثون عن شعب جاء البلد «بعدهم»، «كغريب» ينشد الأمان ولقمة العيش.

ولعلي أجد عذراً مقبولاً لهذا الموقف؛ فالناس العاديون يعرفون الأرمن من خلال حاجتهم الى يد ماهرة تُصلح سياراتهم وتُجهِّز حمّاماتهم وتُمدِّد الأسلاك الكهربائية في بيوتهم.. أو تعالج أسنانهم وأجسادهم!

هذا من جهة، أما من الجهة الأخرى فإنّ ما وُضع من الكتب في العربية عن الأرمن لا يتجاوز عددَ أصابع اليد الواحدة؛ وكلُّ كُتُبِ التاريخ التي تستعيد تاريخ المنطقة تكاد لا تأتي على ذكر الأرمن، في حين أنها تسترسل في الحديث عن الأكاديين والأشوريين والبابليين والآراميين، ثم تقفز الى البيزنطيين والصليبيين والمماليك. غير أنّه لم يعد ثمة أحد من هؤلاء وأولئك إلا في ذاكرة التاريخ، في حين لا يزال الأرمن قائمين بيننا تتشابك أيديهم بأيدينا ليلاً نهاراً.

... ولعل هذا أيضاً من قبيل «تحصيل الحاصل» ذاك!

أما في الأدب الروائي فليس، في حدود معرفتي، روايةٌ عن الأرمن، إلا ما ورد من ذكرٍ عابرٍ لبعض الشخصيات الروائية في أعمال كاتبنا الكبير حنا مينة.

لهذا كله ولغيره أيضاً كانت هذه الرواية.

*

لكنْ! هل هذا هو كل شيء؟ وهل هؤلاء الذين لم يستطيعوا التخلص من لكنتهم التي بَنَيْنا عليها الكثير من النكات الظريفة والمحببة، هم كل الأرمن الموجودين في هذه البقعة الجميلة والمهمة من العالم؟ وهل كانت الهجرةُ عام ١٩١٥ هي أوّلَ مسيرةٍ يقوم بها الأرمن، من أعالي هضبة أرمينية، جنوباً وشرقاً الى بلاد الشام؟

ليس هذا المقام مجالاً لإعادة التاريخ؛ سوى أنه لا بد من التذكير بأنه ـ خلافاً لانطباع العامة ـ ليس الأرمن من «الوافدين» على المنطقة، بل كانوا فيها منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، يجولون فيها مع الجائلين، ويساهمون في نسج تاريخها، وتوطيدِ هويتها، والدفاعِ عنها، من الشمال السوري إلى ضفاف الفرات، ومن آسيا الصغرى إلى حدود سيناء الغربية. ليس ثمة مرحلة من مراحل هذا التاريخ لم يكن للأرمن فيها باعٌ وحصة: بدءاً من تمرد عشيرتهم على الملك البابلي، ولجوءِ القائدِ الفينيقي هانيبال إلى بلاطهم، واحتلالِ ديكران الكبير كيليكيا وسورية وفينيقية وسيناءَ، إلى خضوع قسمٍ من أرمينية لدولة تدمر، فتقاسمِ حكمِ أرمينية بعد فتحها العربي بين الولاة العرب والملوك الأرمن، وبروزِ قادةٍ كبار من الأرمن في الدولتين العباسية والفاطمية (القائد علي الأرمني...، الوزير بدر الجمالي..)، ووجودِ حرسٍ أرمني في قلعة شيزر، ورئيسِ وزراء لدى محمد علي الكبير (هو نوبار باشا)، وقبل ذلك وجود عشرين إمبراطوراً بيزنطياً من أصل أرمني...

إذاً، الوجود الأرمني هنا كان وجوداً دائماً ومتصلاً إلى اليوم، إلى جانب السكان العريقين من بني كندة وطيئ وقريش وسريان وغيرهم، سبق بكثيرٍ وصولَ «الوافدين» من أحفاد الموالي وجواري الروم وغلمان الصقالبة وفرسانِ السهوب والرحّالةِ المغاربة وغيرهم...

اليوم، والعالم بأسره يَلِجُ عمليةً واسعةً من استعادة التاريخ، لكي تعرف الشعوبُ نفسَها، وتعي حقيقتها، كان لا بد من هذه العجالة لكي تكتسب كتابةُ روايةٍ عن الأرمن، هنا، وفي هذا الوقت، مشروعيةً حقيقيةً، تأخذ مكانها في وجه المؤامرة العالمية البشعة لتفرقة الشعوب، بهدف إحكام السيطرة عليها، ولكي يُسْمَعَ صوتُ الأرمن بين أصوات هذه الشعوب، وفي المطالبة ببناء عالم العدل والمساواة والسلام، عالمٍ جديدٍ حقاً، وحضاريٍّ حقاً.

*

عبر هذه الاستعادة، تسجِّل الروايةُ مرحلةً مشرقةً من النضال السري ضد الاحتلال، وفي سبيل التقدم الاجتماعي، عشيةَ اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومؤامرةِ سَلْخ لواء الاسكندرونة، تُذكر وتَرمز الى النضال نفسه الذي كان يجري في شوارع حلب الجانبية، وأزقةِ بيروت، وحيِّ الميناء في طرابلس، في خضمِّ نضالٍ مرعبٍ كانت تقوده هذه الخلايا الصغيرةُ بتصميمٍ وتفانٍ يوصفان، ربما، للمرة الأولى، برومانسيةٍ ممتعةٍ وواقعيةٍ صارمة في آن معاً. ومعها تتكشّف تضحياتُ هذا الجيل، جيلِنا الذي بلغ سنَّ الكهولة ولم يشخ، وشهد الانهيارَ الكبيرَ ولم ييأس، لأنه راهن، منذ البداية، على سيرورةٍ جدلية، فيها تقدُّمٌ وفيها تراجُعٌ، نحو مستقبل كان يعرف سَلَفاً أنه مستقبلٌ للأجيال القادمة.

ثمة تفاصيل، في هذا النضال، يعرفها أصحابُها فقط وبعضُ المقرَّبين، ومن المفيد والمشروع أن تستعاد الآن، وأن تدوَّنَ، لكي يعرف الأصدقاء والآخرون، ويبنوا حكمهم من جديد. ثمة أسماء كانت تُتداول شفاهاً ولم تُكتبْ قط، من حقها الآن أن تسجَّل لكي لا تُنْسى. الشعوب الأخرى كَتَبَتْ دواوينَ نضالها وسجَّلَتْ أسماءَ مناضليها وأطلقتها على الشوارع والساحات. نحن نسينا، بكل بساطة، وأدرنا ظهورنا: لا شارع يحمل ذكرى، ولا ساحة تنطق بالماضي القريب، إلا ما يقبله التقليدُ الصارمُ، أو ما ورثناه من الماضي البعيد. كأنما ذاكرتُنا الجمعيةُ ترفض حاضرنا المؤلم، وتريد دفْنَهُ في لاوعيها، إلى مستقبل قادم أقلُّ ظلماً وخذلاناً.

من هنا أهمية هذه الرواية ـ الرمز ـ التي تسجِّل الأشياءَ والأشخاصَ، ربما لأول مرة أيضاً، بأسمائها الحقيقية، عَلَناً ودون مواربة. لقد سقط الجدار وأصبح كل ذلك من التاريخ، لكنّ هذه الأسماء تعود الى مكانها الطبيعي في ذاكرتنا. شكراً إذاً للصديق الكبير حنا(...).

إيضاح

بقلم: حنا مينة

تتناول رواية **الفم الكرزي** مرحلةً خاصة، في منطقة خاصة، هي منطقة «كسب»، المصيف السوري الشهير، الذي عشتُ فيه فترات من حياتي، بين بداية الحرب العالمية الثانية، وجلاء الاحتلال الفرنسيّ عن سورية، هذا الجلاء الذي تحقق بعد نضال عنيد، وثورات متتابعة، توجتها الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥، التي اشترك فيها وطنيون مجاهدون من كل أنحاء سورية، ومن كل الأحزاب الوطنية، على اختلاف عقائدها وأيديولوجياتها، الى أن كانت انتفاضةُ عام ١٩٤٥، وقصفُ دمشق، ومعركةُ البرلمان، التي تُوِّجت بخروج القوات الفرنسية والإنكليزية من سورية، ثم من لبنان.

وإذا كانت هذه الرواية تتناول نضالَ الأرمن، رجالاً ونساءً، في منطقة محددة، فإنّ هذا النضال كان جزءاً من

كلٌّ، هو الحزبُ الماركسيّ العربي، وقيادتُه في دمشق وبيروت. وكان المناضلون الأرمن في منطقة كسب يربطون ربطاً وثيقاً، بين كفاحهم من أجل إخراج الاحتلال الفرنسي من سورية ولبنان، وكفاحِهم من أجل أرمينيا دولةً مستقلة (وهو ما تحقق الآن). إضافةً إلى أنّ المناضلين الأرمن في كسب كانوا يتلقون توجيهات وتعليمات من قيادة حزبهم الماركسي العربي، في كلٍّ من سورية ولبنان، وينفذونها بدقةٍ وأمانةٍ وسريةٍ ومرونةٍ وتنظيمٍ رفيعِ المستوى، اشتُهِرَ به الإخوةُ الأرمن بشكل خاص ومتميز دائماً.

ومن المعروف أنّ المناضلين الأرمن في منطقة كسب كانوا يقدِّمون العون والمساعدة إلى مَنْ يلجأ إلى هذه المنطقة من المناضلين السوريين، ومن قادة الثورات السورية المتتابعة، ويُخْفونهم في بيوتهم، أو في الغابات الكثيفة في الجبال المحيطة بمنطقتهم. وهكذا دخل الرفاق الأرمن في النسيج النضالي العربي ضد الاحتلال الفرنسي: فالرفيق هايكاز هايكازيان كان أحد قادة الإضراب الخمسيني ضد فرنسا في العاصمة دمشق؛ والرفيق المحامي بيير شدراڤيان (الذي استشهد في ما بعد) كان يدافع عن الوطنيين السوريين أمام المحاكم الفرنسية المختلطة في حلب والمدن السورية الأخرى؛ والرفيق أرتين مادونيان كان من قادة الحزب البارزين الذين ناضلوا بأجسادهم وأقلامهم في سبيل «وطنٍ حرّ وشعبٍ سعيد» وقد اعتُقِلَ وسُجِن من قبل السلطات الفرنسية، واليه يعود الفضل، على مدى نصف قرن ونيف، في إشراك الجماهير الأرمنية، في لبنان وسورية، في النضال العام ضد فرنسا، ومن أجل تحرير فلسطين، وصياغةِ شعار «التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي» الذي غدا شعارَ كلّ التقدميين في الوطن العربي.

وكان جواد، بطلُ هذه الرواية، منتدَباً من منظمة الحزب في اللاذقية، للعمل في منظمة كسب ومنطقيَّتِها. وقد قاد نضالَ هذه المنظمة في ظروف صعبة جداً، وفي ظرف حُكْمِ الجنرال «دانتز» لسورية خصوصاً، بعد احتلال ألمانيا لفرنسا وإقامة «حكومة ڤيشي» صَنيعَةِ النازية. ورغم تعدد الأسماء الحركية لجواد، فإنّه كان عربياً من اللاذقية؛ وبعد تحقيق جلاء فرنسا عن سورية، والاحتفال الكبير به في كسب، يُعلن ـ في ختام الرواية ـ قراره بالعودة الى اللاذقية، لأنّ حبيبته بيرانيك، بطلةَ الرواية، آثرتِ السفَر إلى أرمينيا على حُبّها له.

وبطلُ مني، كتب الحقوقيُّ الأرمني واكيم استور، وهو من تقدميّي اللاذقية، نبذةً تاريخية عن الأرمن، جعلتُها مقدمةً لهذه الرواية. ذلك أنّ عائلته التي نجتْ من المذبحة على يد الأتراك الطورانيين، ولجأتْ الى سورية، تكنّ عرفاناً ـ كسائر العائلات الأرمنية ـ لسورية التي استقبلتِ اللاجئين الأرمنَ إليها، وحَمَتْهم، واستضافَتْهُمْ، وأكرمَتْهُم، قبل أن يستوطنوا المدنَ السوريةَ واللبنانية، في العقد الثاني من هذا القرن. وهذا العرفانُ بالجميل يرتقي إلى مرتبة التقدير والامتنان البالغين، ويتجلّى في كفاح الأرمن والعرب، جنباً إلى جنب، ضد الاحتلال الفرنسي البغيض، وإدراكِ هؤلاء الرفاق الأرمن أنّ حبهم لسورية ولبنان والوطن العربي كله مقترنٌ بحبِّهم لأرمينيا، اقترانَ العروةِ الوثقى التي لا انفصام لها.

إنّ هذا الايضاح قد يكون نافلاً، لولا مساءلةٌ مفترضةٌ عن سبب قيام روائيٍّ عربيٍّ سوري بكتابة روايةٍ مهادُها منطقةُ «كسب»، وأبطالُها أرمنٌ كانوا جزءاً لا يتجزأ من الحركة الوطنية العربية التحررية، وما يزالون. وفي هذه اللّحمة بين عرب وأرمنِ سوريةَ ولبنانَ، ولحمةِ المواطنة بين مسلمي وأقباطِ مصر، ردٌّ بليغٌ، بالوقائع الموثّقة (روائياً!)، على أعداء العرب، وفي المقدمة أميركا وإسرائيل، اللتين تحاولان ـ من خلال الأضاليل والافتراءات ـ إثارةَ موضوعِ الأقليات في الوطن العربي، فتأتي الحقائقُ التاريخيةُ لتفضحَ أضاليلهما، وتذروها في الرياح الأربع.

نعم! هذه رواية عن كفاح الأرمن؛ ولكنها، في المحتوى والهدف، روايةٌ عن كفاح العرب ضد أعدائهم، على امتداد الوطن العربي الكبير كله.

سوء تفاهم

فصل من رواية «الفم الكرزي»

جلس المحقّق انطوان غومولیا وراء مكتبه، بلباسه المدنيّ الأنيق، مع ربطة عنق حمراء، مقلّمة، وعلى عينيه نظّارة مذهّبة الإطار، والى جانبه الكابتن برنار، رئيسُ المفرزة الفرنسيّة في كسب، وقد رسم كلاهما ابتسامةً زئبقيّةً على شفتيه، مخفياً، تحت قشرة من اللطف، نوايا متباينة، لكنها تصبّ في مجرى واحد: استمالة بيرانيك، ابنةِ الأُسرة الثريّة، الخارجة على إرادة أسرتها، والمنضمّة الى من ضلّلوها، من جماعة إسحاق حنانيان «هذا الحدّاد الذين كانت ورشته، تخفي، تحت جناحيها، منظّمةً حزبيّة كاملة، جيّدة التنظيم، نشيطةً، فاعلةً، عصيّةً على الاكتشاف من قِبل الأمن العام الفرنسيّ!».

سأل المحقّق غومولیا:

ـ إذن هذا رأيك يا عزيزي الكابتن برنار؟

أجاب برنار:

ـ بالضبط يا عزيزي غومولیا. لدى الأرمن قدرة متميّزة على التنظيم.

ـ وماذا كان يفعل رجالنا؟ أين عيونُهم السرّيّة؟ أين

قدرتهم على الاختراق؟

ـ لا أدري، ولا يهمّني ذلك. مفرزتي مهمّتها التنفيذ، ولكنْ بعد فوات الأوان!

ـ أي أنهم كانوا يحاولون اصطياد العصفور، بعد طيرانه وإفلاته من أيديهم!؟

ـ بالضبط!

ـ لكنهم كانوا موضعَ ثناءِ رؤسائهم.

ـ تقصد ذلك النازي النتن جيرار؟

ـ هذا كان موضع ثقة دانتز نفسه!

ـ دانتز كان نازيّاً جباناً.. ما إن وصل كاترو الى الحدود السوريّة ـ اللبنانيّة، حتى هرب دانتز، كالأرنب المذعور... وقد حاول «رجلُه» جيرار، الهرب، فكنت له بالمرصاد.. كان جيرار عميلاً مباشراً للغستاپو، وقد لقي جزاءَه العادل.

ـ وماذا بشأن عمله هنا؟ ألم يستفد من أساليب أسياده؟

ـ كان يمكن ذلك في منطقة أخرى! أقول لك، عزيزي غومولیا، هنا الأمر يختلف: إنها «كسب»، أتعرف ماذا يعني ذلك؟ العصيان في الجبال والغابات، وحتى في قلب البلدة! هنا جدار! هنا خطّ..

ضحك المحقّق وقال:

ـ لا تقل «خط ماجينو!» أرجوك، لا أريد سماع هذا الاسم، فهو فضيحة! لولا حركة الجنرال ديغول، لما بقي لفرنسا ذِكْر بين دول الحلفاء!

قال الكابتن برنار:

ـ أنت على حقّ في هذا، لكنّ حنانيان وحزبه ساعدا كثيراً «فرنسا الحرة» في ضرب الدانتزيين، وقطع الطريق عليهم في الهرب إلى تركيا.. هذا ما يجب أن نذكره.. لقد كنتُ في إسكندرونة قبل دخول الجيش التركي إليها، وكنتُ في حلب وبيروت، ورأيتُ هجرة الأرمن من اللّواء، وما تعرّضوا له من أذى.. مع ذلك لم ينحازوا إلى أيٍّ من دول المحور. وهذا يُسجَّل لهم، رجالاً ونساءً.

قال غومولیا:

ـ لا تنس، عزيزي، الثمنَ: وهو خروجنا من سورية ولبنان! هذا هو وعد كاترو.. وتصوّر أن الأرمن لا يقلّون تمسكاً عن العرب بإنجاز هذا الوعد! ماذا نفعل الآن؟ موعد الاستحقاق يقترب! نحن في ورطة! لا بدّ من الضرب بيد من حديد.. «كسب» مثل غيرها: يجب أن تخضع، تعرف لماذا؟ حتى لا يلجأ إليها الذين نطاردهم في المدن الأخرى، وزعماءُ الأرمن خصوصاً! تصوّر أن بيرانيك هذه كانت السببَ في إفلات المدعو «جواد» من أيدينا.. تعرف هذا المسدس لمن؟ إنه لها! تصوّرْ!

قال الكابتن برنار:

ـ اعذرني ملازم انطوان.. أنا معجب ببيرانيك هذه، إنها جميلة جداً وشجاعة جداً..

مقاتلون سوريون وأرمن اثناء الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥

قال غومولیا وهو يرنّ الجرس:

ـ سنرى الآن! لن تُفلت من يدي.. أريد اعترافاً كاملاً، وبحضورك، كابتن! سأجعلها تدلّنا على مخبإ حنانيان وجواد..

ابتسم الكابتن برنار وقال:

ـ فقط؟ اعتبرْ، اذن، أنهما صارا في قبضتك!

ـ أنت لا تعرفني!

ـ هذا جائز، لكنّ المؤكّد أنك لا تعرف بيرانيك هذه!

ـ لن يغريني جمالُها مهما يكن، إنني محصّن من هذه الناحية.. لديّ مناعة! ثم لا تنس..

قال ذلك وغمز بعينه، فابتسم برنار وقال:

ـ هذا جائز! المحقّق الوسيم له أفضليّة.. بماذا ستبدأ؟

ـ بشرب «النِسْكافِهْ»، عزيزي!

*

قال أنطوان غومولیا ذلك، وطلب من الحارس إدخال بيرانيك الى مكتبه، ثم راح يفرك يديه، وبرنار يرى إليه ويبتسم ابتسامةً ملتبسة.. وبعد ثوان نُقر الباب، ثم دخلت بيرانيك بلامبالاة، وأغلق الحارس الباب وراءه. فنظر غومولیا إليها، وقال وهو يشير الى مقعد أمام المكتب مباشرة:

ـ بإمكانك الجلوس، آنستي.. إنني جدّ آسف، ولكنّ الواجب، كما تعلمين، هو الواجب.. أقدّم إليك الكابتن برنار، قائد المفرزة، وهو ـ وهذا سرّ أبوح به ـ الى جانبك.. ألا يعرف أحدكما الآخر؟

قال برنار:

ـ التقينا قبل الآن، في البيت، في المدرسة..

أكملتْ بيرانيك:

ـ وفي المطاردة أيضاً! رجال الكابتن أشاوس: يطاردون النساء نهاراً.. وليلاً!!

قال الكابتن برنار:

ـ وفي البرّ والبحر، لكنهم لا يصطادون شيئاً، مع الأسف!

ـ رجال الأمن أكثر مهارة وشجاعة: اصطادوني في المدرسة، وها أنا سجينة، طوع الأوامر!

قال المحقّق غومولیا:

ـ هذه بداية طيّبة.. ولكن لنشرب «النِسْكافه» أولاً!

قالت بيرانيك بالأرمنيّة:

ـ لنبدإ الاستجواب أولاً! أريد مترجماً!

لم يفهم المحقّق:

ـ ألا تتكلمين الفرنسية؟

قال الكابتن برنار:

ـ وبإتقان تام!

قالت بيرانيك بالفرنسيّة:

ـ أريد مترجماً، وأصرّ على ذلك..

وقف المحقّق، وقال وهو يحكّ ذقنه:

ـ لستُ من أنصار الشدّة، آنستي، لكن عليّ أن أذكّرك أنك هنا سجينة ولست سفيرة!

قالت بيرانيك بجفاء:

ـ أعرف هذا!

ـ إذن؟

ـ المترجم أولاً، وهذا من حقّي.. فإذا لم يكن هناك مترجم، فإنّ المحامي ينوب عنه، وأترك لك الخيار، سيّدي المحقق!

ردّ بقسوة:

ـ لا هذا ولا ذاك! أنت إرهابية، والدليل مسدّسك.. أليس هذا مسدّسك، آنستي؟

ـ نعم مسدّسي! لكنْ ماذا يعني هذا؟ أنتَ أيضاً، وكذلك الكابتن، يحمل كل منكما مسدّساً..

هتف المحقّق:

ـ آه! هناك سوء تفاهم! سوء تفاهم بسيط: نحن نحمل المسدّس بصفتنا العسكريّة، وأنت بأيّ صفة تحملينه؟

قالت بيرانيك:

ـ نعم! هناك سوء تفاهم بسيط، ولكن من نوع آخر.. أنت تحمل المسدّس بصفتك محتلاً، وأنا أحمله بصفتي مقاومةً ضدّ احتلال أرضي من قبلك. أين الإرهاب إذن؟

قدّم غومولیا لها سيكارة فرفضتْ. أشعل سيكارة لنفسه وقال:

ـ هناك، كما يبدو، سوء تفاهم ثالث، لكنه بسيط أيضاً: هل أنت تقاومين لتحرير أرمينيا؟ إذا كان الجواب بنعم، أطلقُ سراحك فوراً!

قالت بيرانيك:

ـ وهل أنت تحتلّ أرضاً فرنسيّة؟ إذا كان الجواب بنعم، أَصْدِرْ حكمَكَ بإعدامي! ثم إنني سوريّة، وأحمل الجنسية السوريّة، وقد وُلدتُ في سورية، ولي كل الحقّ، بصفتي مواطنة، أن أقاوم الاحتلالَ الفرنسيَّ لوطني سورية. وهذا ليس سوء تفاهم، ولا هو بالبسيط أيضاً: فرنسا يجب أن تخرج من سوريّة، وهذا ما سوف يحدث، والموعد يقترب.. دعك من التلاعب بالألفاظ، إذا كنتَ رجلَ قانون، وتحترم هذا القانون! إنني أسألك: هل المقاومة الفرنسية للاحتلال الألماني حركة إرهابيّة!؟

ـ هناك فارق، لا بدّ من أخذه في الاعتبار: نحن لسنا بمحتلّين، نحن منتدبون، ولنا حقُّ البقاء باسم هذا الانتداب!

ـ وقرار الجنرال كاترو الذي تعهّد فيه، باسم «فرنسا الحرة»، بالجلاء عن سورية وبقيام حكم وطنيّ؟

ـ هذا بعد انتهاء الحرب..

ـ لكن الحكومة الوطنيّة، بموجب هذا القرار، قائمة منذ عام ١٩٤٣، وهي وحدها المخوّلة بمساءلتي عن نشاطي الحزبيّ، لا سلطة فرنسا الموجودة مؤقّتاً..

ـ حتى انتهاء الحرب..

ـ الحرب انتهتْ.. الجيش الأحمر في برلين.. وماذا بقي؟ أن ترحلوا!

ـ ليحلَّ محلّنا الإنكليز؟ هذا سؤال وديّ، آنستي!

ـ وأنا لديّ «جواب وديّ» سيّدي المحقّق: الاستقلال يعني خروج جميع القوات الأجنبيّة!

ـ وحمل السلاح؟

ـ حيازة سلاح! وهذا من اختصاص حكومة مدنيّة سوريّة.. تريد شيئاً آخر؟

ـ أن نتفاهم!

ـ لا تفاهم بين سجّان وسجينة!

ـ أنت موقوفة، لا سجينة!

ـ موقوفة لماذا؟ وبأيّ حق؟ غداً يأتيك الجواب: في الصحف والشوارع!

قال الكابتن برنار وهو ينهض:

ـ أنا ذاهب.. لديّ عمل!

قال المحقّق غومولیا:

ـ وأنا أنهي التحقيق اليوم، ونستأنفه غداً!

*

غير أنّ التحقيق لم يُستأنف أبداً؛ فقد تسارعت الأحداث: انتحر هتلر؛ استسلمت ألمانيا؛ شنَق المقاومون الإيطاليون موسوليني؛ حرّرتْ حركةُ المقاومة الفرنسيّة باريس؛ قُبِض على پيتان ولاڤال؛ أُعلن في أيار ١٩٤٥ انتصار الحلفاء؛ تعانق الجنود ـ على جبهات القتال ـ احتفالاً بالنصر؛ انفجرت المظاهراتُ في كل المدن السوريّة اللبنانية؛ تداخل الاحتفال بانتهاء الحرب العالمية الثانية مع المطالبة بالجلاء وتسلّم الجيش؛ صدرت الصحفُ تحمل «مانشيتات» كبيرةً باللون الأحمر؛ خرجتْ مظاهرة في كسب ـ كبيرةٌ نسبياً ـ تقدّمها حنانيان، وقادةُ المنظمة، وبعضُ

اليساريين والوطنيين، من الأرمن، ومن العرب الموجودين في المدينة؛ وكان قد أطلق، قبلاً، سراحُ الموقوفين وبينهم بيرانيك؛ وصدرتِ الأوامرُ الى الفرنسيين الموجودين في سورية بالتزام الثكنات والمقرّات، مع التشديد على عدم التدخل، والابتعادِ ـ ما أمكن ـ عن الشوارع الرئيسيّة، وتجنّبِ أيّ احتكاك، من أيّ نوع، مع الجماهير المبتهجة، الفائرةِ حماساً، المندفعةِ من كل صوب، المتعانقةِ فرحاً، مع شعارات مرفوعة، وأعلام وطنيّة خافقة، وهدير الهتافات: «بدْنا الجيش، بدْنا الجيش، بدنا الجلاء، وخروج القوّات الأجنبية، والاستقلال التام» وزغاريد النساء، ونَثْرِ الزهور، من الشرفات، على المتظاهرين، وإقامةِ أقواسِ النصر، في مدخل المدن والمفارق الرئيسية.

*

في قيادة المفرزة الفرنسية في كسب، تجمّع الفرنسيّون، المدنيّون خصوصاً. وفي مكتب الكابتن برنار، كان المحقّق، الملازم غومولیا، يقول للكابتن:

ـ سبقتنا الأحداث يا عزيزي!

قال الكابتن برنار، وهو يضع رجلاً على رجل:

ـ ماذا كان في وسعنا أن نفعل، حتى ولو لم تسبقنا؟

ـ نتّخذ الاحتياطات اللازمة..

ابتسم برنار كعادته وأكمل:

ـ ... ونقيم المتاريس!

ـ المتاريس وغيرها.

ـ مثل ماذا!؟

ـ نثبت وجودنا على الأقل..

ـ .. ونكمل التحقيق مع بيرانيك!

ـ هذه أفلتتْ من يدي..

ـ ولماذا لا نقول العكس؟

ـ تقصد أنني، أنا، الذي أفلتّ من يدها؟

ـ تماماً.. الآن بدأتَ تفهم يا ملازم انطوان.. اسمعْ!

قال ذلك الكابتن برنار، واعتدل في جلسته، ثم أشعل سيكارة وقال:

ـ كنتَ أمس، يا عزيزي، غيرَ موفّق، وليس ذلك لقلّة كفاءتك، ولكن لأنّ الحقّ كان معها.

نقر غومولیا على طرف المكتب وقال:

ـ كانت تحفظ درسها جيّداً!

ردّ برنار:

ـ كانت تعرف ما تقول جيداً! المنطق، يا عزيزي، هو المنطق دائماً، كنتَ الخاسر لأنك تطرح قضيّة خاسرة، وكانت الرابحة لأنها تتمسّك بقضية رابحة. هذا هو الجوهر، وما عداه هراء!

أضاف برنار:

ـ من سوء الحظّ أنها كانت مستنفرة. لم تلفتها وسامتك، مع أنك وسيم حقاً! كان عليك أن تقبل اعتذاري عن حضور التحقيق، أن تكون وحيداً، لطيفاً، عذباً، وأن تدع كلّ هذا اللغو عن الاحتلال، الانتداب، الأرض السوريّة، الأرض الأرمنيّة، وأن تلجأ الى سلاحك الخاصّ: الغزل الفرنسي الذي نجيده أكثر مما نجيد الاستفادة من «خطّ ماجينو» مثلاً!

ـ تسخر؟

ـ كيف ترى أنت؟ وبالمناسبة: لماذا لم تعرض عليها الزواج؟ ولماذا لم تمهّد لذلك بكلمة لها رنين خاص في أذن المرأة: «أنت جميلة جداً سيدتي!» بشرفك العسكريّ: أليست جميلة وذات فم كرزيّ نادر؟

قال غومولیا:

ـ هل تسمح لي، سيدي الكابتن، إذا قلت لك إنّك تخلط الأمور، بشكل هازئ!؟

ضحك برنار وقال:

ـ ولكن هذا اكتشاف! كان عليّ أن أصيح مثل ارخميدس: «وجدتُها! وجدتُها!» اسمعْ عزيزي! لا أحد، هنا أو في المندوبية، مَنْ يخلط أموراً مخلوطة بذاتها! علينا أن نفرز الخيوط البيضاء والسوداء، أن نجرّب حلّ عقدتها غير الحريريّة.

نهض غومولیا منفعلاً:

ـ ولكن هذا، عزيزي برنار، تشاؤم خطير، يدعو الى اليأس من إبقاء سوريّة في قبضتنا!

أجاب برنار:

ـ ومن إبقائها في قبضة الإنكليز أيضاً! رغم دهاء الجنرال سپيرس في دمشق، ونجاحه في استمالة «بعض الزعماء» الذين تهمّهم السلطة أكثر من تحقيق الاستقلال الكامل.. لكن المسألة ليست هنا. المسألة: ماذا في وسع هذه الحفنة من الزعماء الموالين لسپيرس أن يقولوا للشعب!؟ «لنخرج الفرنسيين ونبقِ الإنكليز، لأنهم أصدقاؤنا!؟» هل هذا ممكن؟

قال غومولیا:

ـ أنا أراه ممكناً، لذلك علينا أن نبقى ولو بالقوة، حتى لا تقطف لندن الثمرة من على شجرتنا!

هزّ الكابتن برنار كتفيه وقال:

ـ عزيزي غومولیا، أنت وأنا، لم نخرج، إذن، بأيّ درس من التحقيق مع بيرانيك!

ـ بلى! خرجنا بدرس مفيد جداً: الشعب ليس بيرانيك بأيّ حال! إنه جاهل وهي متعلّمة، هي مسيّسة لكن الشعب ليس مسيّساً كلّه! هذا ما يجب أن نراهن عليه، وصدّقني سنربح!

قال برنار:

ـ ربما!

وخرج من المكتب.

حنا مينة